التحديات الخطابية للنهضة العربية

أ.د. عماد عبد اللطيف قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم، جامعة قطر، 2713، قطر

Emad.abdullatif@qu.edu.qa

ملخص:

يستكشف هذا المقال المعوقات الخطابية للنهضة العربية، سعيًا إلى الإجابة عن سؤالين محدَّدين هما: ما المشكلات الخطابية التي تعوق النهضة العربية؟ وكيف يمكن التعاطي معها بهدف تقليل أثرها؟ يحدد المقال سبعة معوقات خطابية لتقدم العالم العربي هي: حروب الكلام، وخطاب الكراهية، وفجوة المصداقية، وهيمنة خطاب الدعاية، والتمييز والإقصاء الخطابي، والخصام مع التاريخ، والاستبداد الخطابي.

يقدّم المقال تصورًا لتحويل الخطاب العام العربي من خطاب نهضة إلى خطاب استنهاض؛ أي تحويله من خطاب يُبشر بحلم التغيير والتقدم والتطوير إلى خطاب يُساعد في إنجاز هذا التغيير والتقدم والتطوير.

الكلمات المفاتيح: الخطاب العمومي، خطاب النهضة، الاستنهاض، العالم العربي، مخاطر الكلام

The discursive challenges of the Arabic rising

Abstract:

This article explores the discursive obstacles of development in the Arab world. It answers two questions: (1) what are the discursive problems and obstacles that face Arab development? (2) How Arabs can deal with them. The article claims that changing the discursive condition in the Arab world

enhances its progress. It identifies seven discursive obstacles: word wars, hate speech, credibility gap, propaganda, discursive discrimination and exclusion, hatred of history, and discursive tyranny.

Keywords: Arabic discourse, renaissance, word wars, hate speech, credibility gap, propaganda, discursive discrimination and exclusion, hatred of history, and discursive tyranny

مقدمة:

يبدو حُلم النهوض بالأوطان حُلمًا مشتركًا لدى كل المجتمعات البشرية، خاصة تلك التي اجتازت أو تجتاز مخاض تغيير اجتماعي جذري، كما هو الحال في العالم العربي. وقد عبَّر هذا الحلم عن نفسه في خطاب معظم القوى السياسية العربية الفاعلة. وعلى الرغم من العقبات القاسية التي واجهت الحلم الجمعي للشعوب العربية على مدار السنوات الماضية فإنّ السؤال حول كيفية تحويل حُلم النهوض بالوطن العربي من طموحٍ مأمول إلى واقع مُتحقق يظل مطروحًا. وسوف أخصص هذا المقال لاستكشاف ما إذا كانت الطريقة التي نتكلم بها عن النهضة تسهم في إنجاز هذه النهضة أم تعرقلها؟ وكيف يمكن أن يُسهم الخطاب في تهيئة الطريق أمام النهضة؟ يهدف المقال إلى تقديم تصور لتحويل خطاب النهضة إلى خطاب استنهاض؛ أي تحويل الخطاب العام من خطاب يُبشر بحلم التغيير والتقدم والتطوير إلى خطاب يُساعد في إنجاز هذا التغيير والتقدم والتطوير، بما يعني في النهاية الوفاء بحُلم النهوض بالأوطان.

ينطلق البحث من أرضية أنّ النهضة العربية مشروع لم يُنجز بعد. ويستعمل البحث تعبير (النهضة العربية) بدلالته اللغوية المقترنة بمعاني التحول من السكون والثبات إلى الحركة والتحليق، ولا يتكئ البحث على الدلالة الاصطلاحية للنهضة العربية التي تربط المصطلح بمرحلة محددة من تاريخ العرب الحديث تمتد لما يقرب من قرن من

الزمان فيما بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين[1].

لابـد من التأكيد عـلى أنّ النهضة تقوم على تعاضد أسـس مادية وتنظيمية وخطابية متنوعة. فالنهضة تحتاج، قبل كل شيء، إلى إرادة شعبية وسياسية لتحقيقها؛ فالشعوب المسـتكينة، والأنظمـة الخاملـة، لا تصنع نهضـة، ولا تدعوا لاسـتنهاض. هذه الإرادة لابد أن تُصاغ عمليًا في شـكل مشروع قومي ممتد، مدروس على نحو جيد. لكن إرادة النهضة سـوف تظل مجرد طموح لا يُلامـس أرض الواقع بدون مقومات مادية كافية؛ تتمثـل في وعـاء ضخم من العقول والأفـكار والمهارات والكفاءات، ورأسـمال مادي يفـي بمتطلبـات النهضة من أموال وبنية تحتيـة وغيرها. إضافة إلى ذلـك، فإنّ النهضة تحتاج – قبل كل شيء – إلى إدارة رشيدة، وعلاقات حسنة مع المحيط الحيوي للدول، الذي يتسع الآن ليشمل العالم بأكمله.

عـلى الرغم من أهميـة هذه الأسـس المادية للنهضة فـإنّ الأبعاد المعنويـة والخطابية لا تقـل أثـرًا ولا خطورة. فلكـي يلتف المواطنـون حول مشروع قومي ممتـد، ويحوِّلوا طموحاتهـم إلى واقع، لابد مـن وجود وعي جمعي بأهمية النهضة، وكيفية تحقيقها. هذا الوعي لن يتحقق إلا بواسـطة خطاب وطنـي مُحفِّز للأيدي والعقول والنفوس على أن تبـذل قصـارى جهدها لخدمة الوطن. وهنـاك تحديات خطابية للنهضـة العربية، تنتج عنهـا عوائـق جمـة، تُعرقل إخراج حُلم النهضـة من حيز الأمل إلى حيـز المشروع، هذه التحديات يُمكن تلخيصها فيما يأتي:

أولاً: حروب الكلام

يسـتطيع أيُّ متابـع للصحـف العربية أو التلفزيـون أو مواقع الإنترنـت أو غيرها من وسائل الإعلام أن يرى آثار حروب كلامية طاحنة تدور بين القوى السياسية في المجتمع

(1) لمعلومـات عـن النهضة العربيـة بوصفها مرحلة تاريخيـة يمكن الرجوع إلى: حـوراني، ألبرت. (1962) **الفكر العربي في عصر النهضة (1798 – 1939)**. ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت، 1968.

العربي. وعلى الرغم من أنّ ظاهرة الخلاف السياسي بين القوى المتعارضة أمر صحي، بل وضروري، لتأسيس مجتمع ديمقراطي؛ فإنّ آليات التعبير عن الاختلاف والتنافس قد تحوله من اختلاف صحي إلى تقاتل لفظي يمثّل خطورة على الوطن بأكمله[1].

هناك عدد من الممارسات الكلامية التي تمهّد الطريق أمام اختلافات الرأي لكي تتحول إلى حروب كلام؛ مثل لجوء أشخاص وجماعات ما إلى سلاح التشهير والإشاعات والكذب والتضليل المتعمد بهدف تشويه الخصوم، أو سلاح التكفير والتشكيك في العقائد والتفتيش في القلوب، لتشويه الخصوم السياسيين، أو سلاح النفخ في رماد الاختلافات بين الخصوم السياسيين، بهدف تحويلهم إلى فرقاء سياسيين؛ بواسطة التركيز على مساحات الاختلاف، وإخفاء مساحات التشارك، التي يبدو من الطبيعي وجودها بين الخصوم السياسيين، فكلهم – بشكل مبدئي– يضع الوطن نُصب عينيه. وسوف أضرب مثالاً واحدًا على تجلٍ واحد من تجليات هذه الحرب الكلامية، هو الملشيات الإلكترونية.

الملشيات الإلكترونية هي مجموعات منظمة من الأفراد المتخصصين في بث كمٍّ هائل من الرسائل الإلكترونية (في شكل تعليقات، أو صور، أو أخبار، أو مقاطع فيديو أو تصويت إلكتروني) بهدف الترويج لأفكار أو سياسات أو أشخاص محددين. هذه الملشيات تتكون إمّا من مجموعات من المرتزقة، تتقاضى أجورًا في مقابل الرسائل التي تبثها، أو يحركها انتماء أيديولوجي، يتمّ التعبير عنه في شكل تنظيمي مخطط، وفقًا لسياسات فوقية، أو تنتمي إلى مؤسسات – حكومية أو غير حكومية– لديها مصالح في التأثير في الفضاء العام[2].

(1) رصدتُ في سياق سابق بعض ملامح حروب الخطاب في الربيع العربي، وآثارها المدمرة، انظر، عبد اللطيف، عماد. (2012). **بلاغة الحرية: معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة**، دار التنوير، القاهرة.

(2) للاطلاع على العوامل المؤثرة في نشأة الميليشيات الإلكترونية، انظر، الحيدري، عبدالله. (2019). زمن الذباب والعشائر الإلكترونية: معارك الإثبات والإبطال في مجرة الذكاء الاصطناعي، مجلة لباب، عدد 3، أغسطس، ص 169–202.

عادة ما تتخفى عناصر الملشيات الإلكترونية وراء أسماء مستعارة، وتضع إيميلات أو بروفيلات وهمية، حتى تبدو استجاباتها طبيعية وعادية. وبذلك فإنّ خطورة هذه الملشيات تكمن في أنّ الشخص العادي لا يستطيع - غالبًا- اكتشافها؛ فهي تختلط بتيار استجابات الجماهير غير المنظمة؛ بما قد يمكنها من النجاح في تغيير مساره والسيطرة عليه. وتزداد خطورة هذه العناصر حين تكون التنظيمات التي تحركها تعمل لحساب قوى تستهدف بلبلة المجتمع وزعزعته، مستفيدة من ضعف إمكانية التعقب، وسهولة إخفاء هوية المصدر التي تتسم بها استجابات الجماهير في فضاء الإنترنت. وسوف أضرب بعض الأمثلة على مخاطر هذه الملشيات على الأمن المجتمعي العربي في الوقت الراهن.

لقد عرفت الساحة العربية حالة استقطاب حادة بين القوى المجتمعية على خلفيةٍ أيديولوجيةٍ وسياسية إبان الربيع العربي. كانت هناك أسباب فعلية للخلاف الذي ظهر بين هذه القوى، لكن التجليات الخطابية لهذا الخلاف، ساهمت في تحويله إلى معركة متواصلة، نتج عنها حالة الاستقطاب هذه. ولعل من أبرز هذه التجليات القصف المتبادل بين أنصار الفرق المتصارعة، على ساحة الإنترنت، التي احتشدت بالاتهامات والشتائم والتحريض والكراهية. وربما كانت مصلحة الفريقين في تصعيد القصف الخطابي أقل بكثير من مصلحة قوى الثورة المضادة في الداخل والخارج، التي راهنت على إمكانية إفشال الثورة بواسطة تفتيت قواها الفاعلة، كما راهنت بعد ذلك على تقييد طموحها في التغيير بفضل إزكاء حالة القصف الخطابي ذاتها.

لقد يسّر التواصل الإلكتروني كثيرًا من مهام اختراق الفضاء العام في الدول المعاصرة، لصالح القوى المعادية لها في الداخل والخارج. وأصبح الفضاء الإلكتروني ميدانًا للحروب النفسية والدعاية السوداء. ويكشف هذا عن بُعد سلبي في عصر

استجابات الجماهير[1]. فإذا كانت تقنيات التفاعل الإلكتروني تتيح للجماهير القدرة على إنتاج خطاباتها الخاصة وتوزيعها ونشرها، فإنّها تتيح أيضًا إمكانيات مماثلة للقوى التي تشكل خطورة على المجتمع. ويبدو هذا التحدي من أكثر التحديات خطورة على المجتمعات العربية الراهنة، إذ يُعزز مخاطر ضعف الانسجام الاجتماعي، ويقلل من نجاحها في احتواء اختلافاتها، وتناقضاتها. ومن هنا تتجلى أهمية وعي العرب أفرادًا ومؤسسات بمكامن قوة فضاء التواصل الإلكتروني وخطورته في الآن ذاته، وأهمية مساءلة كل رسالة يتم إنتاجها وتوزيعها في هذا الفضاء، واليقظة أمام محاولات النفاذ إلى الخطاب العام لإزكاء التمزق والاضطراب المجتمعي، والحذر من الأقاويل المرسلة، والإشاعات المتربصة، التي امتلأ بها الفضاء الإلكتروني العام. وبقدر ما تُمزق حروب الكلام مساحة التفاهم الضرورية بين الخصوم السياسيين، فإنّ خطاب الكراهية يُمزق مساحة التعايش فيما بينها، ولذا فإنّ خطاب الكراهية – مثل حروب الكلام – من أهم العوائق الخطابية لتحقيق النهضة، وهذا يحتاج إلى بعض التفصيل.

ثانيًا: خطاب الكراهية

يمكن تعريف خطاب الكراهية بأنّه كلّ كلام أو نص يُشيع المقت والبُغض والازدراء والعداوة بين الأفراد أو الجماعات على أساس العرق أو الجنس أو الدين أو المذهب أو اللون وغيرها[2]. وكما أنّ هناك كراهيات خفية، يسترها الشخص تحت

(1) أطلقتُ مصطلح (عصر استجابات الجماهير) منذ نحو خمس عشرة عامًا لأشير إلى تحول جذري حادث في فضاءات التواصل العمومي، تُشكل فيه استجابات الجماهير الظاهرة الأهم في التواصل العمومي. انظر: عبد اللطيف، عماد. (2005). «بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته»، ضمن **السلطة ودور المثقف**، جامعة القاهرة، ص 36–7.

(2) يحظى موضوع خطاب الكراهية باهتمام مؤسسي وبحثي كبير، لمراجعة راهنة لهذه الدراسات يمكن الرجوع إلى:

Tontodimamma, A., Nissi, E., Sarra, A. et al. Thirty years of research into hate speech: topics of interest and their evolution. Scientometrics 126, pp157–179 (2021).

غطاء من التبريرات، هناك كراهيات صريحة مباشرة، لا تُغطي عوراتها بأوراق التوت.

يـؤدي خطـاب الكراهيـة إلى إثارة العـداوة بين أفـراد المجتمع أو شرائحـه. كما أنّه يُضعـف من قـوة الجبهة الداخلية، ويجعلها عرضة لأشـكال مـن الاختراق الخارجي، بواسـطة إظهـار الانحياز للجماعـات التي تتعرض لخطاب الكراهيـة. وقد رأينا كيف تذرعـت قوى اسـتعمارية عديـدة على مـدار العصور بمنـاصرة بعض مـن يتعرضون لخطاب الكراهية من الأقليات أو المهمشـين، للوصـول إلى مآربهم في إثارة القلاقل أو فرض السـيطرة المباشرة. كما أنّ شـيوع خطـاب الكراهية يؤدي إلى اسـتنزاف طاقات الأفـراد والمجتمعـات في نزاعـات ومخاصـمات لا تنتهـي؛ بـما يـؤدي إلى تبخـر الطاقة الإيجابيـة الضروريـة للعمل والإنجـاز. ويزداد هذا خطورة في ظل وجود اسـتجابات متفاوتة لخطاب الكراهية، وهي عادة تتراوح بين:

1. العدوان

إنّ الـرد على خطاب الكراهية بالعدوان شـائع في المجتمع العربي، على نحو ما رأينا في ردود الفعل على حادثة الفيلم المسـيئ للرسول (ص). ويؤدي الرد بالعدوان إلى ترسيخ الكراهية وتحويلها إلى ثأر، وجرح مفتوح.

2. الكراهية المضادة

كثـيرًا ما يسـتجيب من يتعرضون لخطاب الكراهية بواسـطة إنتـاج خطاب كراهية مضاد. وهو ما يؤدي إلى اسـتنزاف النفوس والعقول، ويُعجل بترسـيخ الكراهية، وتحويلها من اتجاه إلى سلوك.

3. التجاهل

يلجـأ البعـض إلى آليـة تجاهل خطـاب الكراهية. ويبـدو هذا الخيار فاعـلاً في حالة خطابـات الكراهية التي تشـكل جـزءًا من مؤامـرة، تهدف إلى دفع مـن يتعرضون للكراهية إلى إنتاج استجابات عدوانية تُعرِّض مصالحهم وصورتهم العامة للخطر؛

كما يحدث فعليًا كل بضع سنوات في العالم الإسلامي.

4. التفنيد

التفنيـد هـو مواجهة خطاب الكراهية بواسـطة كشـف تناقضاتـه وفجواته وتحيزه وعنصريته والأسـس الواهية التي يقوم عليها؛ بواسطة الأدلة والحجج والبراهين. ويؤدي التفنيد إلى كسر حلقة الكراهية، وتحويل المشـاعر النفسـية إلى عمليات نقد عقـلي؛ وهو ما يتيح إقامة فرص للحوار، قد تدفع من ينتجون خطاب الكراهية إلى مراجعة مواقفهم، وربما العدول عنه.

5. التسامح

يـؤدي التسـامح إلى كـسر حلقـة الكراهيـة، ويبرهن على قـوة فاعلـه، وقدرته على السـيطرة على الذات والواقع. ولا يجب أن يُنظر إلى التسـامح على أنّه فعل سـلبي، أو أنّـه دال عـلى ضعف فاعله؛ بـل على العكس من ذلك. فالتسـامح ليـس مرادفًا للاستسـلام، بـل هو تعبير عـن اختيار حر مـن موقع القوة، التي تتجلى في السـعي الدائم لامتلاك القوة اللازمة لمواجهة العدوان.

إنّ مخاطر خطاب الكراهية على إنجاز النهضة لا يتوقف على إشـاعة جو من فقدان الثقة أو الغضب بين شرائح المجتمع، بل يؤدي كذلك إلى التفريط في مكاسب المجتمع، وتعريـض مصالحه للخطر، نتيجة الاسـتجابات غير المحسـوبة تجاهـه. ولا يقل الأثر السـلبي لخطابات الكراهية عـلى النهضة القومية عن الدور السـلبي الذي تلعبه فجوة المصداقية في الخطاب العام.

ثالثًا: فجوة المصداقية

فجوة المصداقية هي الفجوة التي توجد بسبب اختلاف أقوال الشخص عن أفعاله؛ أو التناقـض بـين أقوالـه ذاتها إمّا في الآن نفسـه، أو بمـرور الزمن؛ أو بسـبب إخلاف الوعـود، والتخلي عـن الالتزامات. وتؤدي فجـوة المصداقية إلى عـدم الثقة بدرجة أو

أخرى في كلام الشـخص، وعدم التعامل معه على نحو جدي، وإضفاء جو من فقدان اليقـين وتعميق التشـكك. ويـؤدي هذا – في حالة رجل السياسـة – إلى تقليل فادح في فاعلية خطابه السـياسي. فالكلام السـياسي يُنجـز تأثيره في الجماهير حـين تتعامل معه الجماهـير عـلى أنّه يتمتع بدرجة مصداقية معقولة. أمّا حـين يقر في ضميرها الجمعي أنّ شـخصًا ما غير أهل للثقة فإنّها عادة ما تتوقف عن الاسـتماع إليه، أو تسـتمع إليه بغير اهتمام؛ إذ تدرك في هذه اللحظة أنّ ما تشاهده جزء من مسرحية غير مقنعة.

عـادة مـا يُـسيء السياسـيون تأويـل اسـتجابات الجماهير للـكلام الـذي يفتقد إلى المصداقيـة، خاصـة في مراحلـه الأولى. فكثـير مـن السياسـيين قد يظنون أنّ سـكوت الجماهـير عـن مواجهة كلماتهـم المتلاعبـة دليل على نجاحهـم في التلاعـب بالجمهور، والتمكن من خداعه. ويستمرئون بعد ذلك الاستمرار في التلاعب والخداع. لكن هذا الظن ما هو إلا وهم كبير. فالشـعوب عادة ما تتمتع بأشـكال من الذكاء الجمعي، التي تمكنهـا من فـرز الكلام والمتكلمين، وتمييـز مَنْ يصدقهم القـول والعمل، عمَّن يحاول أن يتلاعـب بهـم. هذا الـذكاء الجمعي يحتاج إلى مـدى زمني كبير للوصـول إلى نتائج قاطعة، تتشـكل عبر الخبرة والمعايشـة، والملاحظة الدقيقة. وما إن يصل أفراد مجتمع ما إلى حكـم عام حول مدى مصداقية رجل السياسـة حتى يتحول هذا الحكم إلى قانون، لا يمكن تغييره بسـهولة. فمن ينجح في اختبار المصداقيـة يحظى بالتقدير والدعم، أمّا من يفقدها، فإنه يفقدهما معًا.

يُعـدّ تحدي فجوة المصداقية من بين التحديات الخطيرة التي تواجه طموح النهضة. فهنـاك شـكوك عميقـة في مصداقيـة بعض الفصائـل السياسـية التي تتخذ من شـعار «النهضـة» محـورًا لخطابها السـياسي؛ وبعض هـذه الفصائل يُمسـك بمقاليد السـلطة بالفعـل، في بعـض دول الربيـع العـربي في الوقت الراهـن. هذه الشـكوك نتجت عن وجـود تفاوتـات – قـد تصل في بعـض الأحيان إلى حـد التناقض– بين الأقـوال التي تصـدر عـن هذه الفصائل والأفعال التي تمارسـها، وبين الأقـوال المختلفة التي تصدر

عـن أعضائهـا في الوقت نفسـه، أو الأقوال المتغـيرة لبعض أعضائها عـبر الزمن. هذه الفجـوة في المصداقية تؤثر بالسـلب على طموح النهضة لـدى المجتمع بأكمله. ففجوة المصداقيـة تؤدي إلى غياب حماس شرائح من المجتمع لخطاب النهضة، وتشـككهم في إمكانيتهـا، بسـبب افتقادهم للثقة في الطـرف الذي يدعو إليها. ويزداد هذا التشـكك بالنظر إلى التحدي الخطابي الرابع لطموح النهضة؛ وهو هيمنة خطاب الدعاية.

رابعًا: هيمنة خطاب الدعاية

هنـاك نوعان من خطابـات النهضة عرفهما العالم العربي في عـصره الحديث. الأول خطاب فكري، تأسـس على أرضية وسـيعة من الكتابات والمشـاريع الفكرية والبحثية ترجـع إلى مـا يقرب من قرن ونصف من الزمان. وهـو خطاب ما تزال رموزه حاضرة في الخلفيـة المعرفية للإنسـان العربي، مثل رفاعة الطهطـاوي ومحمد عبده وجمال الدين الأفغاني وعبد الرحمن الكواكبي وطه حسين والقائمة طويلة[1].

النوع الثاني من خطابات النهضة هو خطاب سـياسي، إمّا تُنتجه قوة سياسية تمسك بالفعل بمقاليد السـلطة، وتسعى لخلق وعي شـعبي بالنهضة، يوازي ممارستها الفعلية لإنجـاز نمـط خاص منها؛ كـما في تجربة جمال عبـد الناصر في سـتينيات القرن الماضي، أو تنتجه قوى سياسـية في إطار سـعيها للوصول إلى السـلطة. وفي مثل هذه الحالة فإنّ خطاب النهضة يتحول إلى جزء من الدعاية الانتخابية؛ سـواء على المسـتوى النيابي أو الرئـاسي. والحالـة الأخيرة هي ما سـوف نتوقف عنـده بالتفصيل؛ لأنّهـا تمثل الوضع الراهن في معظم المجتمعات العربية.

مـن الـضروري التأكيـد عـلى أنّ وجـود مشـاريع للنهضـة عـلى أجندة المتنافسـين الانتخابيين هو أمر إيجابي في حدّ ذاته. فقد عانت المجتمعات العربية طويلاً من سيطرة

(1) للاطلاع على المساهمات المختلفة لرواد النهضة العربية يمكن الرجوع إلى: عبود، مارون. (1952). **رواد النهضة العربية**، دار العلم للملايين، بيروت.

دعايـات انتخابيـة طائفيـة أو عصبيـة على هذا الخطاب الموسـمي. ومن ثـمَّ، فإنّ حفز النـاس على انتخاب شـخص أو قائمـة ما؛ بواسـطة إقناعه بأهمية المـشروع النهضوي الذي يسـعى لتحقيقه، هـو في حدّ ذاته تطور مؤثر. لكن هـذا التطور تعصف بإيجابيته بعض الممارسات اللصيقة بالدعاية الانتخابية، وبالمفهوم الشائع للناس عنها.

عادة ما تتضمن الدعاية الانتخابية سلسلة من الوعود المستقبلية التي يأخذ المرشح على عاتقه تنفيذها أو إنجازها حال وصوله إلى كرسي السلطة. ولأنّ التنافسية الانتخابية غالبًا ما تكون شـديدة ومشـتعلة فإنّ المرشـحين يفرطون في منح الوعود، على أمل أنّ الناخبين سرعان ما ينسـون. ويفسر هذا سـمة المبالغة السـائدة في خطاب الانتخابات السياسـية في العالم العربي. فعادة ما يُسرف المرشـحون في سـكب الوعود المعسـولة في آذان ناخبيهـم، حتـى يحظوا بأصواتهم الانتخابية. والنتيجـة التي تترتب على ذلك هي أنّ مشاريع النهضة في خطاب الدعاية الانتخابية سرعان ما تتحول إلى مشاريع وهمية، تحلق في الهواء، دون أي رابط يشـدها إلى الواقع. ويؤدي تكرار انكشاف هذا التلاعب إلى أنّ يفقـد المواطن العادي الثقة في خطاب النهضـة، وفي قدرته على تحقيقها، وإلى أن يتعامل مع هذه الخطاب على أنّه حلقة من حلقات مسلسل الزيف السياسي.

عـلاوة على ذلك، فإنّ التوظيف السـياسي الدعائي للطموحـات النهضوية، يخاطر بتثبيط آخر لهمة المواطنين عن المشـاركة فيه، لسـبب آخر يتعلق بالانقسامات السياسية التـي تُحدثها الدعايـة الانتخابيـة. فالدعاية الانتخابيـة غرضها ترسـيخ التمايزات بين المتنافسـين السياسـيين، بهدف دفع الجمهـور إلى اختيار ما يُقدَّم لهـم بوصفه الأفضل. وهـي من هذه الزاوية تنطوي على ممارسـات تشـويه متبادلة لشـخصيات المتنافسـين، ولمشـاريعهم أو أطروحاتهـم التـي تمثّل وعودهـم الانتخابية. وعلى الرغـم من أنّ هذا الـصراع قـد يـؤدي إلى تفنيدات مهمة لهذه المشـاريع عـلى أيدي الخصوم، فإنّ تشـويه المنافسـين قـد يـؤدي إلى فقدان الجمهـور للثقة – كليَّـة – في كل دعـاوى النهضة التي يقدمها المرشحون، وقد يستمر هذا إلى ما بعد وصول أحدهم إلى سدة السلطة، ويظل

الموقف المتشكك في مشروعه النهضوي موجودًا بفعل الدعاية الانتخابية المضادة.

هـذه المخاطـر الناتجة عـن التوظيـف الدعائي لخطـاب النهضة يمكـن التقليل من آثارها إلى حدّ ما؛ عن طريق ترشـيد الوعود الانتخابية، والحرص على ألا تكون ضربًا من الأوهام المقصودة. ويتحقق هذا حين تُقدَّم هذه المشاريع في شكل دراسات جدوى متكاملة، تضع في الاعتبار المتغيرات المحتملة والمخاطر الممكنة، ولا تعِدُ إلا بما تستطيع أن تُنجز. كما أنّه يمكن تقليل هذه المخاطر بواسطة التعامل الموضوعي مع المشروعات التي يُقدمها الخصوم السياسـيين، وتثمين الإيجابي فيها، وتفنيد السلبي منها، والتوقف عن نقضها وهدمها لتحقيق مكاسب سياسية فئوية.

وعلى الرغم من أنّ الاسـتغلال الدعائي لخطاب النهضة له آثار سـلبية على تعاطي الشـعوب مع هذا الخطاب، فإنّ التمييز والإقصاء الخطابي، وهو التحدي الخامس من التحديات الخطابية للنهضة العربية، ربما كان أكثر خطورة على مستقبل النهضة العربية.

خامسًا: التمييز والإقصاء الخطابي

تُعـاني معظـم الدول العربية من آثار الاسـتعمار الكلاسـيكي عـلى الرغم من مرور عقـود عـلى التحـرر منه. فقـد عَمِد هذه الاسـتعمار إلى خلق بـؤر للتوتـر والقلاقل في معظم المجتمعات العربية إمّا على أسـاس ديني (المسلمين والمسيحيين..إلخ) أو عرقي (العرب والأمازيغ، أو العرب والأكراد..إلخ)، أو مذهبي (السـنة والشيعة، السلفيين والمتصوفة..إلـخ)، أو أيديولوجـي (العلمانيين والإسـلاميين، التقدميين والرجعيين.. إلخ). وقد أعاد الساسة وبعض النخب الفكرية إنتاج الخطاب الاستعماري ذاته الذي يقـوم عـلى إذكاء التمييز بين المواطنين على أسـاس ديني أو عرقي أو لـوني أو طبقي أو أيديولوجـي أو مذهبـي. ولا يزال العالم العربي يسـير في حقل ألغام شـائك، يتفجر في جسـده بين الحين والآخر، وقد بُترت بعض أطرافه بفعل هذه الألغام المدسوسـة، كما حدث في السودان.

يعاني خطاب النهضة مخاطر جمة بسبب الاحتقان المجتمعي شبه المصطنع في العالم العربي. وقد أفلح الساسة العرب على مدار العقود الماضية في تعظيم مخاطر هذا الاحتقان، وتوسيع مداه، ومضاعفة آثاره، بواسطة سياسات القهر والتمييز التي سادت في عصر الجمهوريات المستبدة. وعلى الرغم من أنّ الربيع العربي حمل في رحمه أحلامًا وطنية جامعة، فإنّ مخاطر تزايد الاحتقان وتعاظم آثاره تزداد بمرور الأيام. وهو ما يرجع بشكل أساسي إلى أنّ بعض من وصلوا إلى مقاعد السلطة يقومون بإنتاج خطابات تمييزية تمارس إقصاءً وتمييزًا خطابيًا ضد شرائح من المجتمع؛ خاصة من المغايرين لهم دينيًا أو المختلفين أيديولوجيًا. والمثال الأبرز لهذا الإقصاء هو ميل بعض السياسيين في مناصب رفيعة إلى إنتاج خطاب سياسي شبه ديني، يُقصي أتباع الديانات الأخرى من دائرة مخاطَبيه النصيين، ويقصرها على من يشاركونه الدين والمعتقد. وعلى نحو مشابه، فإنّ السياسيين الذين يتعمدون إلقاء كثير من خطبهم السياسية الوطنية في مناسبات أو أماكن ذات طبيعة دينية – كالمساجد– يمارسون شكلاً آخر من الإقصاء والتمييز الخطابي ضد المواطنين من الديانات الأخرى؛ لأنّه يحول دون إمكانية وجودهم بوصفهم مخاطَبين فعليين، بسبب القيود المفروضة على دخولهم إلى هذه الأماكن أو المناسبات الدينية.

هذه الأشكال من التمييز والإقصاء الخطابي المـمارَس ضد شرائح من المواطنين شديدة الخطورة على خطابات النهضة العربية. فلكي تتحول مشاريع النهضة من طموحات وأحلام إلى واقع معيش لابد من مشاركة كل شرائح المجتمع في بنائها، دون إقصاء أو تمييز. فنهضة الوطن – أي وطن – تحتاج إلى تكاتف جميع مواطنيه، بغض النظر عن معتقداتهم وأعراقهم ومذاهبهم؛ فالوطنية هي البوتقة الجامعة التي – يجب أن – تذوب فيها كل التمايزات. وحين يفشل منتجو خطاب النهضة في إنتاج خطاب استنهاض جامع، لا يمارس تمييزًا ولا إقصاءً، فإنّهم في الواقع يُفشلون مشروع النهضة في ذاته، ويحكمون عليه بالموت. فالخطابات الإقصائية لا تحرم المجتمع من عطاء بعض

مواطنيه فحسب، بل تفتح الباب أمام هوَّة التناحر الخطابي أيضًا؛ وحينها سوف يُهمَّش خطاب النهضة ويسود خطاب الصراع على الوجود، وتصبح الأرض ممهدة لمزيد من تدخلات الاستعمار الخارجي، بدلا من أن تقوّي الجبهة الوطنية، وتحول دون اختراقها.

إنّ خطاب النهضة لا يمكن أن يُنجز أغراضه إلا إذا كان محتفيًا بالأقليات، متسعًا للتعدد الفكري والمذهبي، حريصًا على دمجهم في إطار المواطنة، مؤكدًا على مبدأ المساواة التامة بين أفراد الشعب في كل شيء، مُرسِّخًا لمبدأ المواطنة؛ بوصفه الإطار الذي يُحتكم إليه في صياغة العلاقات بين المواطنين. ولن يتحقق هذا إلا بالتعامل الإيجابي مع التحدي الخطابي السادس من تحديات خطابات النهضة العربية؛ أعني تجاوز الخصام مع التاريخ.

سادسًا: الخصام مع التاريخ

يفرض الواقع السياسي الراهن ظاهرة مؤثرة في المجتمعات العربية، هي وجود حالة خصام عميق بين بعض الأنظمة الحاكمة والتاريخ السياسي للمجتمع الذي تحكمه. فقد أدت أحداث الربيع العربي إلى صعود قوى سياسية جديدة على خشبة المسرح السياسي كانت إمّا منزوية باختيارها أو مهمَّشة بفعل الأنظمة الحاكمة قبلها. هذه القوى لها خصومات عميقة مع بعض شخصيات وأحداث الماضي القريب، بسبب ما تعرضت له من قهر أو اضطهاد أو تهميش، أو بسبب فشلها في الوصول إلى السلطة إبان الصراع السياسي عليها في الماضي. هذه الخصومة تؤثر بقوة في التقييمات التي يقدمها الحكام الجدد للتاريخ القومي الحديث؛ حيث يتعرض هذا التاريخ لأشكال من التشويه المتعمد واسع النطاق. وفي معظم المجتمعات فإنّ هذا التاريخ شهد محاولة أو أكثر للنهضة.

تؤدي الخصومة مع التاريخ إلى فصم عُرى الصلة بين مشاريع النهضة المتوالية في المجتمع الواحد؛ وهو ما يُنتج تمزقات في نسيج التاريخ الوطني. كما تحول هذه

الخصومـة دون تقييم موضوعي لتجارب الماضي القريب، الذي يؤثر في راهن المجتمع على نحو جذري. وتزداد مخاطر هذه الخصومة التاريخية في حالة ما إذا كان هذا الماضي ما يزال حيًّا على المستوى السياسي؛ نظرًا لوجود كيانات أو تنظيمات تستلهمه، أو تتبنى أفـكاره ومبـادءه، على نحو مـا نرى في الأحـزاب والتجمعات الناصريـة في مصر على سبيل المثال. ففي هذه الحالة تتحول الخصومة مع التاريخ إلى صراع مع الراهن، ويمتد التشويه ليتجاوز تجارب الماضي إلى شخصيات الواقع المعيش.

الأسـباب السـابقة تبرهن على خطورة الخصومة العمياء مـع التاريخ على خطابات النهضة العربية؛ التي تؤدي إلى الانهماك في معارك جانبية، تستنزف الجهود والطاقات، وتحـول مشـاريع النهضة إلى مشـاريع فئوية تخص أفـرادًا أو جماعات أو فئـات بعينها. وهـو مـا ينزع عنها صفة الجمعية؛ ومن ثمَّ يدفـع البعض إمّا إلى عدم الانخراط فيها أو حتـى إلى معاداتها. ولكي تتجاوز خطابات النهضـة مخاطر الخصومة مع التاريخ عليها أن تُعيـد بنـاء خطابهـا ليعبر عن حالة تعايـش مع الماضي، دون التفريـط في حق انتقاده ومساءلته حتى يتحقق بالفعل التعلم منه. كما أنّ الأنظمة الحاكمة الراهنة مدعوة بشدة إلى الاتـكاء على المشـترك الوطنـي، وتبئير النقـاط المضيئة فيه. ولا يمكـن تحقيق ذلك بمعـزل عـن مقاومـة هيمنة البُعد الفـردي والفئوي عـلى خطابات النهضـة العربية في الوقت الراهن، وهذا هو التحدي الخطابي الأخير الذي نرصده في هذا البحث.

سابعًا: الاستبداد الخطابي

عرف العالم القديم – والحديث أيضًا– عادة ربط مشاريع النهضة الوطنية بشخص بعينـه؛ غالبًا ما يكون هو نفسـه الحاكم الممسـك بمقاليد السـلطة؛ هكـذا نتحدث عن مـشروع محمد علي لنهضة مصر، وعن المشروع الناصري للنهضة العربية. وعلى الرغم مـن أنّ أحـد الدروس المهمة من تاريخ مشـاريع النهضة الوطنية هو أنّ هذه المشـاريع تبوء غالبًا بالفشـل إذا تمحورت حول شـخص بعينه، فإنّ الأنظمـة الحاكمة في الوقت

الراهـن تُعيد إنتاج نفس النسـخة الفردية مـن النهضة التي تربطها بشـخص أو فئة أو جماعة، ربطًا حصريًا.

واحدة من النتائج المترتبة على هذا الارتباط القسري بين مشروع النهضة وشـخص الرئيـس أو حزبـه أو جماعتـه، هي الإقصـاء غير المبـاشر لشرائح مـن المواطنين ممن لا يُدركون أنفسهم بوصفهم جزءًا من شخص الرئيس أو حزبه أو فئته أو جماعته. وهو ما يؤدي إلى ضياع طاقات وجهود وإمكانيات يمكن أن تكون حاسـمة في مصير مشروع النهضة.

لقد عانت المجتمعات العربية لزمن طويل من شـخصنة السـلطة، حين كان الحاكم الفرد هو محور كل شيء. وكانت التجليات الخطابية لهذه الشـخصنة مفجعة وبائسة في الوقت ذاته. فقد نُسـبت أوطـان بأكملها، تضم ملايين المواطنين، إلى شـخص واحد؛ فأصبحنا نضيف بلادًا بأكملها إلى اسـم شـخص الحاكم، كـما في مصر مبارك، وعراق صدام، وليبيا القذافي. ونجحت قوى الاستعمار الجديدة في تطويع هذا الوضع المقلوب لصالحها، فإذا كان وطن بأكمله يصبح تابعًا لشخص الرئيس، فإنّ تشويه هذا الوطن، وتأليب العداوات ضده، لا يتطلب أكثر من تشـويه شـخص الرئيـس، ثمّ التأكيد على نسـبة الوطـن بأكمله إليـه، كما شرح عالم اللغويـات المعرفية جورج لاكـوف في تحليله للخطاب السياسي الأمريكي حول العراق في حربيها الدمويتين عليها.

إنّ الربط بين مشاريع النهضة الوطنية وشخصيات سياسية بعينها – خاصة رؤساء الـدول– يمثـل خطورة حقيقية عـلى هذه المشـاريع. فحين يرتكن مـشروع بأكمله إلى شـخص واحد يكون عرضة للعطب. فكل اضطراب يعانيه الشـخص، على المسـتوى السـياسي أو الحياتي، سـوف يؤثر سـلبًا على المـشروع. وإذا كانت المجتمعـات العربية تحلم بنهضة حقيقية فإنّ عليها ألا تقبل أن تكون النهضة مسـئولية شـخص واحد، أو أن تقبـل أن يحتكرهـا هذا الشـخص أو الجماعـة أو الفئة التي يمثلهـا. وعليها دومًا أن

تُـدرك أن نجاح النهضة مشروط بأن تكون – وتظل– مشروعًا قوميًا متجاوزًا للأفراد والجماعات والفئات.

خاتمة: هل يدعم الخطاب السياسي العربي الراهن طموحات النهضة أم يُجهضها؟

الإجابة عن السؤال السابق، تتطلب توصيفًا دقيقًا لمدى تغلغل التحديات الخطابية للنهضة في نسيج الخطاب العربي العام. ويؤكد مشهد الخطاب السياسي العربي الراهن أنّ سـاحة الخطاب العام تشهد أشـكالا عديدة من الصراع والتطاحن، وأنواعًا مختلفة من الممارسات التواصلية الرديئة. وربما لا يكون من المبالغ فيه القول إنّ الخطاب العام في العالم العربي يعوق تحول طموح النهضة إلى إنجاز ملموس.

إنّ فسـاد اللغـة – كما يؤكد جـورج أورويل صاحب النقد الأهـم لخطاب الأنظمة المستبدة في العصر الحديث– هو الوجه الآخر لعُملة فساد السياسة، لكن أورويل كان يؤمن كذلك بأنّ البشر يستطيعون التقليل من آثار فساد السياسة بواسطة معالجة بعض أعـراض فسـاد اللغة (Orwell, G. (1946),p 264) فبقـدر الحاجة إلى إجراءات عملية لتهدئة الصراعات السياسية بين القوى السياسية المتناحرة، تكون الحاجة إلى إجراءات عاجلـة لإصـلاح الجانب اللفظي من هذه الصراعات، ومـن أهمها الوصول إلى توافق بين القوى السياسـية بشـأن صياغة خطاباتهم السياسـية لكي تنحـاز إلى قيم التعاون، والتفاهم، والتعايش، والحوار، ولا تندفع في شـن حملات التشـويه والاغتيال المعنوي المتبادلـة. وهكذا تحل الخطابات التضامنية تدريجيًّا محل الحروب الكلامية، وخطابات الكراهيـة. ولابـد أن يتوافـق هذا مـع مراجعات فكريـة هدفها التصالح مـع التاريخ، والتعلـم منـه دون معاداته، والحـرص على ردم فجـوة المصداقية، وفصـم الترابط بين النهضة والدعاية الانتخابية.

مصادر البحث ومراجعه:

Orwell, G. (1946). Politics and the English Language: A collection of essays. Harvest, 264.

Tontodimamma, A., Nissi, E., Sarra, A. et al. Thirty years of research into hate speech: topics of interest and their evolution. Scientometrics 126, pp157–179 (2021).

حوراني، ألبرت. (1962) **الفكر العربي في عصر النهضة (1798 – 1939)**. ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت، 1968.

الحيدري، عبدالله. (2019). زمن الذباب والعشائر الإلكترونية: معارك الإثبات والإبطال في مجرة الذكاء الاصطناعي، مجلة لباب، عدد 3، أغسطس، ص 169–202.

عبد اللطيف، عماد. (2005). «بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته»، ضمن **السلطة ودور المثقف**، جامعة القاهرة، ص 7–36.

عبود، مارون. (1952). **رواد النهضة العربية**، دار العلم للملايين، بيروت.